عاهدوا وما بدلوا

عهود موثقة بالكتاب والسنة

لا مناص لسالك طريق الجهاد من العلم والعمل بها

الجزء الثاني

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ
ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأحزاب).

العهد الثالث: الاستئذان من الإيمان

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾ (النور).

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: ما المؤمنون حقَّ الإيمان، إلا الذين آمنوا بالله ورسوله، ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ﴾، يقول: إذا كانوا مع رسول الله ﷺ، ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾، يقول: على أمر يجمع جميعهم، من حرب حضرت، أو صلاة اجتمع لها، أو تشاور في أمرٍ نزل، ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾، يقول: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ)[1].

وقال ابن كثير: (وهذا أيضا أدبٌ أرشد اللهُ عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة جمعة، أو عيد، أو جماعة، أو اجتماع لمشورة، ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا ينصرفوا عنه، والحالة هذه، إلا بعد استئذانه ومشاورته، وإنَّ من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال: ﴿فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾)[2].

وقال البغوي: (﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾، يجمعهم، من حرب حضرت، أو صلاة أو جمعة، أو عيد أو جماعة، أو تشاور في أمر نزل... ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾... قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له، وإن شاء لم يأذن)[3].

---

(١) جامع البيان ١٨/١٧٥.

(٢) تفسير القران العظيم ٦/٨٨.

(٣) معالم التنزيل ٣/٣٥٩.

وقال أبو حيان الأندلسي: (وذِكر الاستغفار للمستأذِنِين دليلٌ على أنَّ الأحسن الأفضل أن لا يُحدِّثوا أنفسهم بالذهاب، ولا يستأذنوا فيه. وقيل: نزلت في حفر الخندق، وكان قوم يتسللون بغير إذن، لذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم، ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل، ولا يتفرقون عنهم، والأمر في الإذن مُفوَّض إلى الإمام إن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، على حسب ما اقتضاه رأيه، وهو تفسير حسن. ويجري هذا المجرى إمام الإمرة إذا كان الناس معه مجتمعين، لمراعاة مصلحة دينية، فلا يذهب أحد منهم عن المجمع إلا بإذن منه)[1].

وفي تفسير "اللباب" لابن عادل: (والأمر الجامع هو الذي يعم ضرره أو نفعه، والمراد به الخطْب الجلل الذي لا بد لرسول الله ﷺ من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم، فمفارقة أحدهم في هذه الحالة مما يشق على قلبه، ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ : أمرهم، ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾، بالانصراف، أي: إن شئت فأذن، وإن شئت فلا تأذن، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ﴾، وهذا تنبيه على أنَّ الأولى ألا يستأذنوا وإن أذن؛ لأنَّ الاستغفار يكون عن ذنب، ويحتمل أن يكون أمره بالاستغفار لهم مقابلة على تمسكهم بإذن الله تعالى في الاستئذان)[2].

وقال السيوطي: (﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾... أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآية قال : هي في الجهاد والجمعة والعيدين)[3].

وقال البقاعي: (﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾، أي: لهم على الله، كالجهاد لأعداء الله، والتشاور في فعلهم وصلاة الجماعة، ونحو ذلك، ﴿ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾، عن ذلك الأمر خطوة إلى موضع من الأرض، ولو أنه بيوتهم، لشيء من الأشياء، ولو أنه أهم مهماتهم؛ لأنه أخذ عليهم الميثاق بالطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره)[4].

---

(١) البحر المحيط ٤٣٦/٦.

(٢) تفسير اللباب لابن عادل ٤٦٥/١٤.

(٣) الدر المنثور ١١٠/٥.

(٤) نظم الدرر ٢٨٨/٥.

وقال الآلوسي: (وعن ابن زيد، أنَّ الأمر الجامع: الجهاد. وقال الضحاك وابن سلام: هو كل صلاة فيها خطبة، كالجمعة والعيدين والاستسقاء. وعن ابن جبير، هو الجهاد وصلاة الجمعة والعيدين. ولا يخفى أنَّ الأولى العموم، إن كانت الآية نازلة في حفر الخندق، ولعل ما ذكر من باب التمثيل، ﴿ **وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ**... ﴾، فإنَّ الاستئذان وإن كان لعذرٍ قويٍ لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة. وقال الجلال السيوطي: إنَّ في الآية دليلاً على وجوب استئذانه ﷺ قبل الانصراف عنه عليه الصلاة والسلام في كل أمر يجتمعون عليه. قال الحسن: وغير الرسول ﷺ من الأئمة مثله في ذلك؛ لما فيه من أدب الدين وأدب النفس. وقال ابن الفرس: لا خلاف في الغزو أنه يستأذن إمامه إذا كان له عذر يدعوه إلى الانصراف)[1].

وقال القاسمي في معنى الأمر الجامع: (وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهم، أو تضام لإرهاب مخالف، أو تسامح في حلف، وغير ذلك، أو الأمر الذي يعمُّ بضرره أو بنفعه، وقرئ: (**أمر جميع**)، وفي قوله: ﴿ **وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ** ﴾، أنه خطب جلل، لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه ويعاونونه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشقُّ على قلبه، ويشعث عليه رأيه، فمن ثم غلَّظ عليهم وضيَّق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط، ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله: ﴿ **لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ** ﴾. وذِكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أنَّ الأحسن الأفضل أن لا يحدِّثوا أنفسهم بالذهاب، ولا يستأذنوا فيه)[2].

وقال سيد: (وأيًّا ما كان سبب نزول هذه الآيات، فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها، هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها، ثم تستقر في حياتها، فتصبح تقليدًا متبعًا وقانونًا نافذًا، وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها)[3].

---

(١) روح المعاني ١٩/٢٢٤.

(٢) محاسن التأويل ٩/٤٥٥٧.

(٣) في ظلال القران ٤/٢٥٣٤.

وقال ابن عاشور: (وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأنَّ من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع، وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام، ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمَّروا عليهم أميرًا، فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين، فهو في مقام النبي ﷺ، فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه؛ لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانقضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها)[1].

وقال السعدي: (ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذَكر لأذنه لهم شرطين، أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر فلا يؤذن له. **والثاني**: **أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن، قال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر اللهُ رسولَه أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصِّرًا في الاستئذان، ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوَّز لهم الاستئذان مع العذر)**[2].

(١) التحرير والتنوير ٩/٣٠٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٨/١٠٨.

الوصايا

الوصية الأولى: التزام الاستئذان إيمان

لا يستطيع أحد من أهل الجهاد في العراق أن ينازع في أنهم اليوم على أمر جامع، ولا يستطيع أحد أن ينازع بأنَّ الأمر الجامع في الآية ليس خاصًا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لانتفاء الدليل الدافع للأصل المتفق عليه، وهو أنَّ خطاب الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم خطاب لأمته، وبالإضافة لكل هذا فهنا دليل على أهمية هذا الأمر على وجه الخصوصية، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (**من يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني**)(١).

وقد ذكر القرطبيُّ الأقوال في الأمر الجامع، وذكر ترجيح الإمام مالك وابن اسحاق، أنَّ ذلك مخصوص بالحرب، فقال: (والذي يبيِّن ذلك **أمران:**

أحدهما: قوله في الآية الأخرى: ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا** ﴾، وذلك أنَّ المنافقين كانوا يتلوذون ويخرجون عن الجماعة، ويتركون رسول الله ﷺ، فأمر الله جميعهم بأن لا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله ﷺ، وبذلك يتبيَّن إيمانه.

الثاني: قوله: ﴿ **لَمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ** ﴾، وأيُّ إذنٍ في المحدِث والإمامُ يخطب، وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه، وقد قال: ﴿ **فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ** ﴾، فبيَّن بذلك أنه مخصوص بالحرب).

ثم عقَّب القرطبي فقال: (القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى)(٢).

ومع هذا فإنه لا يوجد أمر جامع أولى وأرفع وأحسن وأعلى من الأمر لمنازلة العدو، ونشر الدين، فإذا كان في جهاد الدفع كان أعظم أهمية، وأكثر تعيينًا في الوجوب.

ولقد تهاون العديد من الناس في أرض الجهاد في الاستئذان حتى لم يعد الكثيرون يعيرون الأمر مزيد اهتمام في القدوم، والقعود، والانصراف في الإياب، والذهاب، وأصبح البعض يختار أسلوب "**الأمر الواقع**" مع أمير جهاده، رضي الأمير أم لم يرض، فهو إذا أراد أن يذهب ذهب دون إعلام؛ ليصبح

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٦)، ومسلم (٨٦٤)، وأحمد ٢٤٤/٢، والنسائي (٨٦٧٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٢١/١٢.

ذهابه أمرًا واقعًا! وربما يسافر إلى منطقة أخرى للزيارة، أو في بلاد أخرى للتجارة، أو الإقامة، أو الهجرة، ويترك صحبه وراءه، بل يترك أمر الله وراء ظهره.

يقول الإمام القرطبي: (وظاهر الآية يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة)[1].

والملاحظ أنك تجد هذا التصرف من **المنافقين** في كل عصر من العصور.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عمن كان يستأذن يوم جاء التتار إلى الشام: (﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾؛ لأنَّ الله يحفظها، ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾، فهم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجون بحجة العائلة، وهكذا أصاب كثيرًا من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا. **وهم يكذبون**، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لوْ دَنا العدو كما فعل المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان يمكنهم إرسالهم، والمقام للجهاد، فكيف بمن فرَّ بعد إرسال عياله؟!

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ (الأحزاب)، فأخبر أنه لو دُخلت عليهم المدينة من جوانبها، ثم طلبت منهم الفتنة، وهي الافتنان عن الدين بالكفر أو النفاق، لأعطوا الفتنة، ولجاؤوها من غير توقف...

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام، وتلك فتنة عظيمة، لكانوا معه على ذلك، كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا، ما بين ترك واجبات، وفعل محرمات، إما في حق الله، وإما في حق العباد، كترك الصلاة، وشرب الخمور، وسب السلف، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين، وحريمهم، وأخذ أموال الناس، وتعذيبهم، وتقوية دولتهم الملعونة، **وإرجاف قلوب المسلمين منهم**، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة)[2].

وكما كان هؤلاء من قبل يحاولون السلامة بأنفسهم بعيدًا عن ميدان القتال، فإنهم يحاولون تأكيد كونهم من المؤمنين، ومع المؤمنين بقلوبهم وإن كانوا بعيدين بأبدانهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٢١/١٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٥٢/٢٨-٤٥٣.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فقال تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (التوبة)، فأخبر جلَّ جلاله أنهم وإن حلفوا أنهم من المؤمنين فما هم منهم، ولكن يفزعون من العدو، فلو ﴿ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾، يلجؤون إليه من المعاقل والحصون التي يفرُّ إليها من يترك الجهاد ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾، وهي جمع مغارة، ومغارات سميت بذلك؛ لأنَّ الداخل يغور فيها، أي: يستتر كما يغور الماء، ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾، وهو الذي يتكلف الدخول إليه، إما لضيق بابه أو لغير ذلك، أي: مكانًا يدخلون إليه، ولو كان الدخول بكلفة ومشقة، ﴿ لَوَلَّوْا ﴾، عن الجهاد إليه، ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾، أي: يسرعون إسراعًا لا يردهم شيء، كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يرده اللجام، وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا، وفيما قبلها من الحوادث وبعدها...

وكذلك قال تعالى في سورة محمد: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾، أي: فبعدًا لهم، ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجرات) فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد...

وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (التوبة)، فهذا إخبار من الله بأنَّ المؤمن لا يستأذن الرسولَ في ترك الجهاد، وإنما يستأذنه الذي لا يؤمن، فكيف بالتارك من غير استئذان؟! ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى)[1].

والصفة المشتركة لانسحاب هؤلاء من ميدان الجهاد هي "التسلل"؛ كي لا يعلم بهم أحد فيعوقهم ويمنع خروجهم، وربما افتضح أمرهم قبل الخروج، وربما وافق القائد على خروجهم، وأذن لهم سرًّا إن خرجوا

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٤٣٧-٤٣٨.

بناءً على حججهم التي يصعب عليه ردها، إما حياءً وإما تصديقًا لأعذارهم، ولو كان غير القائد معه لربما أفسد عليهم تسللهم، وقبول اعتذارهم...!

وتبقى صورة التسلل مفتوحة حسب الزمان والمكان، فلربما كان ليلاً، ولربما كان رسالة، ولربما كان رسالة هاتفية، أو بريدية، أو عن طريق غير مباشر، أو عن طريق وسيط...

يقول القاضي البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾: (ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة... ﴿لِوَاذًا﴾ يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنه تابعه)[1].

إنَّ الاستئذان قضية في غاية الأهمية، كيف لا! وقد نصَّ عليها القرآن، وجعلها فاصلاً بين الإيمان والنفاق.

الوصية الثانية: أعذار المنافق هي هي

أيُّ قائد جهادي أو أيُّ منافق يصدق مع نفسه، ويستعرض أعذاره وأعذار صحبه، فإنه لا يجدها تخرج عما ذكر الله سبحانه وتعالى، وإنه ليجد في الكلمة القرآنية إظهار الأعذار النفاقية على الأراضي العراقية على حقيقتها، وكأنَّ القرآن أُنزل الآن بخصوصنا نحن، هذا هو الأمر وأكثر دون أدنى مبالغة.

وهاك أعذارهم باختصار:

العذر الأول: عدم الاستطاعة على الجهاد

يقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (التوبة).

يقول ابن الجوزي في تفسيره: (لو قدرنا وكان لنا سعة من المال)[2].

ولكنَّ لفظ الاستطاعة يشمل كلَّ أنواع الاستطاعة...

---

(١) حاشية محي الدين بن شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٦ /٢٦٠.

(٢) زاد المسير ٣/٤٤٤.

نعم، فسبب نزول الآية مقصور على حادثة واحدة معينة، لكنَّ الكلمة القرآنية شملت كلَّ معتذر بعدم الاستطاعة وهو كاذب: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

فكم رأينا من يعتذر بعدم الاستطاعة المالية! يقول: أنا فقير ولا أملك سلاحًا، ولا سيارة، ولا شيئًا أقدر أن أخرج أو أقاتل به... أنتم محتاجون وأنا عالة عليكم... والله يكذبهم ويقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، عندهم ما يغنيهم! وميدان الجهاد يكذبهم... ففي ميادين الجهاد من هو أفقر منهم كما قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (التوبة).

يعتذرون بأنَّ مدخولهم المادي لا يكاد يكفي الأسرة، وأنهم إن خرجوا فلا مال للأسرة ولا معيل... فهل من الإسلام أن يصبح الأولاد عالة؟!

والله يكذبهم فيقول: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وميدان الجهاد يكذبهم، إذ كم من معيل وحيد لأسرة فقيرة، لما مات أصبح للأسرة أكثر من معيل، وعاشت الأسرة في بحبوحة ما كانت تعيش عشرها!

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر**)[1]، فإذا كان الله يستجيب دعاء المسافر، فلم لا يستجيب دعاء المجاهد، وهو أكرم الناس سفرًا، وأعظمهم في سفره أجرًا؟!

فهل يضمنهم الله ويضيِّع من وراءهم؟! حاشاه سبحانه.

﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، يعتذرون بعدم الاستطاعة البدنية، فإنَّ صحتهم لا تتحمل، وأوزانهم لا تصلح للحركة، وإصابتهم القديمة بأرجلهم أو أيديهم تعوقهم عن تحمل تبعات الجهاد! ثم إنهم يخافون على الإسلام أن يؤتى من قبلهم!

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٨٢١)، وأحمد ٢/٢٥٨، وعبد بن حميد (١٤٢١)، والبخاري في "الأدب المفرد" (٣٢)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وابن حبان (٢٦٩٩)، وحسَّنه الألباني، وشعيب.

والله يكذبهم ويقول سبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾ (التوبة).

بل إنهم ليتمنون أن يستروا نفاقهم عن المؤمنين وجبنهم، ولو بإصابة حديثة ظاهرة تجعل المؤمنين يعذرونهم، حتى لو كان كسرًا في الرجل أو في اليد أو نحو ذلك؛ لكيلا يخرجوا للجهاد في سبيل الله!

﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾، يعتذرون بعدم الاستطاعة؛ لأنَّ وضعهم جدُّ حساس، وخروجهم يكشف المجاهدين، فليتركوا في الخلف خيرٌ للمجاهدين من أن يكونوا معهم.

وهكذا تشمل كلمة الاستطاعة جميع اعتذارات المنافقين بالعجز في الماضي والحاضر والمستقبل، وبصوره المختلفة، والمختلقة، والواقع العراقي كما نشاهده يشهد بهذا...

العذر الثاني: شدة حرارة الأجواء

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ۝٨١﴾ (التوبة)

كأنهم إذا جاء الشتاء خرجوا للجهاد!

أو كأنهم متخصصون في الغزوة الشتوية، أما الصائفة فلا!

وهل من اعتذر بأعذار فصلية بحرارة أو برودة يريد أن يبذل روحه؟!

فماذا بعد حرارة السلاح؟! وهل للحر أو البرد بعد ذهاب الروح من قيمة؟!

وهل قولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾، موجهٌ إلى إخوانهم المنافقين أو موجهٌ إلى المؤمنين؟ ذكر المفسرون القولين .

وعلى أية حال **فإن كان خطابهم** موجهًا للمنافقين أو ضعفاء الإيمان فهذا يعني أنهم لم يكتفوا بمجرد النهي عن الخروج، بل استخدموا أسلوب الترهيب والترغيب في القعود، فقولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾، يعني الترهيب من حرِّ الجزيرة وقيظ الصحراء، كما يعني الترغيب في الجلوس في الظلال والثمار والمياه...

وأما إن كان خطابهم موجهًا للمؤمنين فهذا يعني أنهم يثبطون المؤمنين عن الخروج بطريقتين، ويرغبونهم بطريقتين، فلكأنهم يقولون لهم: إن خرجتم فثمة أمران، الأول: حرارة الجو الشديدة، وهي مضرة لنا ولكم. والثاني: أنكم سوف تخسروننا؛ لأننا لا نستطيع الخروج في الحر.

أما قعودكم فلكم فيه مكسبان، **الأول:** الثمار والظلال والأنهار وما إلى ذلك. **والثاني:** خروجنا معكم في غير هذا الوقت، والله أعلم.

العذر الثالث: عورة الأهل

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾** ﴾ (الأحزاب).

قال الطاهر بن عاشور: (وجملة ﴿ **وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ** ﴾، عطف على جملة ﴿ **قَالَت طَّآئِفَةٌ** ﴾، وجيء فيها بالفعل المضارع للإشارة إلى أنهم يُلحُّون في الاستئذان ويكررونه ويجددونه)[1].

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ** ﴾، قال ابن قتيبة : أي : خالية، فقد أمكن من أراد دخولها. وأصل العورة: ماذهب عنه الستر والحفظ، فكأنَّ الرجال ستر وحفظ للبيوت، فإذا ذهبوا أعورت البيوت. تقول العرب: أعور منزلي، إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. وأعور الفارس، إذا بان منه موضع خلل للضرب والطعن. يقول الله: ﴿ **وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ** ﴾؛ لأنَّ الله يحفظها، ولكن يريدون الفرار. وقال الحسن، ومجاهد: قالوا: بيوتنا ضائعة نخشى عليها السُّراق. وقال قتادة: قالوا بيوتنا مما يلي العدو، ولا نأمن على أهلنا، فكذَّبهم الله، وأعلم أنَّ قصدهم الفرار)[2].

وقال **سيد:** (ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة، ولم تقتحم عليهم بعد. ومهما يكن الكرب والفزع، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع، فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها، ﴿ **ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ** ﴾، وطلبت إليهم الردة عن دينهم، ﴿ **لَءَاتَوْهَا** ﴾، سراعًا غير متلبثين، ولا مترددين، ﴿ **إِلَّا**

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٨٥،٢٨٦.

(٢) زاد المسير ٦/٣٦٠-٣٦١.

قَلِيلًا ﴾ من الوقت، أو إلا قليلاً منهم يتلبثون شيئًا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارًا. فهي عقيدة واهنة لا تثبت، وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة)[1].

أيها المجاهدون العراقيون: ما أكثر ما سمعتم من يعتذر عن الجهاد في سبيل الله من الشباب بحجة الأهل... فالأهل عورة...! والأهل محتاجون...! والأهل في موقع الخطر...!

ومنازلنا قرب مقرات العدوّ، كما قال قتادة: بيوتنا مما يلي العدوّ!

الأهل في وجه المدفع! الأهل، والأهل، والأهل وما أدراك ما الأهل!

وربنا يقول: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾** ﴾ (التوبة).

فهل أبقى الله من عذر لمعتذر بأهله! كيف وجهادنا جهاد دفع لا يستأذن فيه أحد أصلاً؟

اذهب بأهلك حيث شئت من مناطق تأمن فيها عليهم في الداخل أو الخارج، ثم أودعهم من شئت من إخوانك وأهلك، واستودعهم الله، وارجع إلى حيث أمرك الله...!

فماذا سيصنع الأهل إذا متَّ بينهم على فراشك وتركتهم؟!

وماذا سيصنع الأرامل والأيتام ممن افتقدوا المعيل على الفراش؟!

﴿ **يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ** ﴾، والمفهوم أنَّ المنافقين ستر للعورات!

فهل هذا حقيقة؟! وهل تستر العورة بعورة؟!

وهل من مقارنة ما بين عورة الأُمَّة وعورة الأَمَة؟! أو عورة البلد المسلم وعورة البيت المسلم؟!

ومن ثم كان جواب الله جلَّ في علاه أن قال: ﴿ **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾** ﴾ (الأحزاب). فالآية توضح بجلاء أنهم يتنازلون عن أعظم شيئين، وليس عن العورة فحسب، إنهم يتنازلون عن المدينة برمتها بدل البيت، والدين بدل أيِّ مبدأ كمبدأ العورة... ولذا

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٨٣٩.

قال المفسرون: (﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾)، أي: الفتنة عن الدين، والردة، لآتوها، أي: لارتدوا عن دينهم. فأيُّ عورة تبقى إذا ذهب الدين والبلد؟!

ولعل العالمَ كله رأى تحقق هذه الآية بأوضح ما تكون يوم أن دخلت القوات الصليبية في أول أيامها في النجف، فلقد وقف المنافقون حين دخلت عليهم المدينة من أقطارها بائعين بلدهم، قائلين للغزاة: تفضلوا وادخلوا... إي والله، وما تلبثوا بها إلا يسيرًا.

وما ذكره الله تعالى بحرف "**لو**" حرف الشرط، تحقق جزاؤه فعليًا على أرض العراق...

وهكذا، فكل عذر إذا تأملته وجدت له في النفس الضعيفة وجهًا من القبول، ولو دققت فيه لوجدت فيه ملاذًا للفرار.

العذر الرابع: خوف الفتنة!

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (التوبة).

قال ابن عاشور: (نزلت في بعض المنافقين، استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن تبوك، ولم يبدوا عذرًا يمنعهم من الغزو، ولكنهم صرَّحوا بأنَّ الخروج إلى الغزو يفتنهم لمحبة أموالهم وأهليهم، ففضح الله أمرهم بأنهم منافقون؛ لأنَّ ضمير الجمع عائد على الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. وقيل: قال جماعة منهم: ائذن لنا؛ لأنا قاعدون، أذنت لنا أم لم تأذن، فأذن لنا؛ لئلا نقع في المعصية. وهذا من أكبر الوقاحة؛ لأنَّ الإذن في هذه الحالة كلا إذن، ولعلهم قالوا ذلك لعلمهم برفق النبي ﷺ. وقيل: إنَّ الجد بن قيس قال: يا رسول الله، لقد علم الناس أني مستهتر بالنساء، فإني إذا رأيتُ نساء بني الأصفر افتتنتُ بهن، فأذن لي في التخلف، ولا تفتني، وأنا أعينك بمالي. ولعل كل ذلك كان)[1].

وما نقلناه يدل بوضوح على سعي المنافقين لإلباس أعمالهم النفاقية اللبوس الشرعي؛ لتمريرها على المؤذِنين دون أيِّ استنكار منهم، ولكن أنَّى لهم ذلك، وهم يتمسكون بشبهات هي أوهى من خيوط

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٢٢٠- ٢٢١.

العنكبوت؟! فأيُّ رجل هذا الذي يخشى على نفسه فتنة النساء، وهو يريد أن يقعد في المدينة وليس بها إلا النساء؟! وكيف يخشى على نفسه المعصية، وهو يسعى نحو النفاق بتركه للجهاد؟!

ولذلك فقد حذَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تصديق أمثال هؤلاء وإجابتهم، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم). قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: (نعم، وفيه دخن). قلت: وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر). قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها). قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم). قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[1].

فانظر كيف وصف النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء الضُّلال بأنهم من جلدتنا، أي ظاهرهم الإسلام، (ويتكلمون بألسنتنا)، أي: يتكلمون بلسان الشرع، ويسوقون الأدلة الشرعية التي تبرر مواقفهم وتضفي عليها نوعًا من الشرعية، ولكنهم في حقيقة أمرهم (دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها)[2].

فكما زعموا هناك بأنَّ بيوتهم عورة، فسقطوا في العورة الأكبر، فإنهم زعموا هنا بأنهم يخافون الفتنة– فتنة النساء– فسقطوا في الفتنة الأكبر، فتنة النفاق.

ومن قبل تحاشوا حر الصيف فسقطوا في حر جهنم.

فأين يذهب المنافق بعذر التخلف عن الجهاد في أرض العراق.

هذه هي أكبر أعذارهم وأشهرها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (٤٨١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٩).

(٢) دراسة قرآنية في النفاق وأثره في حياة الأمة، رسالة ماجستير للدكتور عادل بن علي الشدي ص

الوصية الثالثة: ممَّن الإذن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

أَوْكل الله تعالى الإذن وعدمه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ثم فهو حقٌّ من الله لأمير الرسول من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ الأمر لا يخلو من خلاف في وجهات النظر ما بين المستأذِن والأمير، فقطع الله جلَّ جلاله بأنَّ الأمر والمشيئة هنا للأمير وليس للمستأذِن.

الوصية الرابعة: رفق الأمير

لا بد أن يكون الأمير رفيقًا مستغفرًا، ويتقي الله جلَّ جلاله ما استطاع في المؤمنين المستأذِنين، إذ أنَّ الله حمَّله هذه الأمانة، وطلب منه في الختام الاستغفار للجميع والدعاء لهم.

الوصية الخامسة: صراحة الإذن

إذا كان الله تعالى ربط إذن الذهاب بأمر الأمير، فكيف بالخروج عن الطاعة أساسًا؟! إذن فلا بد أن يكون استئذان صريح وإذن صريح.

الوصية السادسة: الاستغفار بشارة النصر

ربط الاستئذانِ بالاستغفار دليل النصر، وفأل به- بإذن الله- إذ أنَّ الاستغفار هو الذكر المطلوب عادة عند مواجهة العدو، فالنصر يقع بين استغفارين، استغفار قبل المواجهة، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨** ﴾ (آل عمران). واستغفار بعد النصر، كما قال تعالى: ﴿ **إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣** ﴾ (النصر).

العهد الرابع: عهد على حماية الإمداد

قـــال الله تعـــالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (المنافقون).

هـذه الطريقـة النفاقيـة، مِـن أنفـذ مـا تكـون في تفريـق صـفِّ المجاهـدين، وفي تشـتيت جهـودهم، وإضعاف قوتهم... والمنافقون أعلم الناس بهذا، وخصوصًا الذين عاشوا هذه المرحلة بين المجاهدين، ورأوا حاجة المجاهدين للدينار والدرهم، ثم إنَّ المنافقين يحرصون دائمًا على معرفة مصادر التمويل والتحويل، وهم أقدر من العدوِّ الظاهر على معرفتها، وأقدر على الدلالة عليها، وقطعها من غيرهم، فإذا نظرت بدقة في الآية وجدتهم يوجهون كلامهم لأناس معروفين لديهم بالإنفاق على المؤمنين كما قال الإمام الطبري: (﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ ﴾، يعني: المنافقين الذين يقولون لأصحابهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾، من أصحابه المهاجرين،﴿ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾، يقول: حتى يتفرقوا عنه. وقوله ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، يقول: ولله جميع ما في السموات والأرض من شيء، وبيده مفاتيح خزائن ذلك، لايقدر أحد أن يعطي أحدًا شيئًا إلا بمشيئته، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أنَّ ذلك كذلك، فلذلك يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضُّوا)[1].

وهم إذ يفعلون ذلك فإنما يفعلونه لغاية محددة، إنها قطع الإمداد عن المؤمنين! إنه تفريق صفِّ المجاهدين، وانفضاض جمعهم بأسوأ صورة، **قاتلهم الله أنى يؤفكون!**

وقال ابن عطية: (﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ... ﴾، سفَّه أحلامهم في أن ظنوا إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين، ونسوا أنَّ جريان الرزق بيد الله تعالى، إذا انسد باب انفتح غيره)[2] .

---

(١) جامع البيان ١١١/٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ٣١٤/٥.

وما أجمل ما قال برهان الدين البقاعي رحمه الله: (عبَّروا بحرفِ غايةٍ ليكون لما بعده حكم ما قبله، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾، أي: يتفرقوا تفرقًا قبيحًا فيه كسر، فيذهب أحد منهم إلى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك)[1].

وقال الآلوسي: (والقائل رأس المنافقين ابن أبيٍّ، وسائرهم راضون بذلك ... والانفضاض التفرق، و﴿حَتَّىٰ﴾ للتعليل أي: لا تنفقوا عليهم؛ كي يتفرقوا عنه عليه الصلاة والسلام، ولا يصحبوه)[2].

وقال ابن عاشور: (وصيغة المضارع في ﴿يَقُولُونَ﴾ يشعر بأنَّ هذه المقالة تتكرر منهم لقصد إفشائها)[3].

أرأيتم الدقة في هذه الآية الكريمة؟ والدقة في مخطط العدوِّ الخبيث وغايته؟ وبعدها هل رأيتم انطباق ماورد في الآية القرآنية على واقعنا؟ وهل رأيتم كم نظلم أنفسنا، ونخسر من أرواحنا، ونؤخر تمكيننا حين لا نعطي الآيات القرآنية حقها؟

وهل رأيتم كبار زنادقة العراق كيف يدندنون ويدينون التمويل الخارجي من أصحاب المجاهدين، ولو من باب الإثارة والتخويف؟

ثم هل رأيتم كيف يعرض العدوُّ أعلى المكافآت والمرتبات ليوظف هؤلاء المجاهدين، ويسلكهم في سلك المنافقين المخبرين؟ كما يعرض على الشباب الآخرين الذين يخافون من انخراطهم في سلك المجاهدين؛ ليصرفوهم عن جهادهم إلى وظائفهم التي كانوا عليها كما عبَّر **البقاعي** رحمه الله عن ذلك بقوله: (**فيذهب أحدٌ منهم إلى أهله وشغله الذي كان عليه قبل ذلك**).

أيها المجاهدون: حقيقة عظيمة يجب أن تعتقدوها وتبنوا عليها أعمالكم، تلك الحقيقة لا يعرفها حق المعرفة أحد سواكم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾. وما أجمل ما قاله البقاعي في تفسير هذه الآية: (فسبحان مَن يُضلُّ من يشاء حتى يكون كلامه أبعد شيء عن الصواب، بحيث يعجب العاقل كيف يصدر ذلك عن أحد... فقد أرسل جلَّ جلاله إليه ﷺ بمفاتيح خزائن الأرض

---

(١) نظم الدرر ٦١٢/٧.

(٢) روح المعاني ١١٤/٢٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢٤٦/١٣.

فأباها، وما كفاهم هذا الجنون حتى زادوه ما دلَّ على أنهم ظنوا أنَّ أبواب الرزق تغلق إذا امتنع المنفقون من الناس عن إنفاقهم... وما درى الأجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح اللهُ غيرَهم للإنفاق، أو أمر رسوله ﷺ فدعا في الشيء اليسير فصار كثيرًا، أو كان بحيث لا ينفد، أو أعطى كيلاً يسيرًا من طعام على كيفية لا تنفد معها، كتمر أبي هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن رضي الله عنهم، وغير ذلك كما روي غير مرة، ولكن ليس لمن يُضلُّ اللهُ من هاد، ولذلك عبَّر في الرد عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾، أي: قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله، والحال أنَّ للملِك الذي لا أمر لأحدٍ معه فهو الآمر الناهي ﴿خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: كلها، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ كذلك من الأشياء المعدومة الداخلة تحت المقدرة، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون. ومن الأشياء التي أوجدها فهو يعطي من يشاء منها ما يشاء حتى من أيديهم، لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك، لا مما في يده ولا مما في يد غيره، وفيه على سوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضهم: إن كان محمد صادقًا فنحن شر من البهائم، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أي: العريقين في وصف النفاق، ولما كان ما يساق إلى الخلق من الأرزاق فيظن كثير منهم أنهم حصلوه بقوتهم عبَّر بالفقه، الأخص من العلم، فقال: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يتجدد لهم أصلاً؛ لأنَّ البهائم إذا رأت شيئًا ينفعها يومًا ما في مكان طلبته مرة أخرى، وهؤلاء رأوا غير مرة ما أخرج الله من خوارق البركات على يد رسول الله ﷺ فلم ينفعهم ذلك، **فمن رأى أنَّ رزقه بيد الخلق فألهاه ذلك عن الله حتى ضيَّع حقوقه، وداهن في دينه فقد برئ من القرآن**)[1].

والمنافقون حين يأمرون المنفقين بقطع الإمداد عن المجاهدين إنما يريدون الدين برمته، وتفريق اجتماع حملته، فهو المخطط القديم الحديث الذي لا يتخلى عنه المنافقون أبدًا، في أيِّ عصر من العصور.

ويظهر سيد رحمه الله هذا المعنى جيدًا من قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۝٧﴾ (المنافقون)، فيقول: (وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة، وهي خطة التجويع التي يبدو أنَّ خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان، ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة

(١) نظم الدرر ٧/٦١٢.

كما هي في حسهم، فيحاربون بها المؤمنين، إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب؛ لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ، ويسلموه للمشركين، وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية؛ لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع، وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعًا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة، وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق، وهكذا يتوافق على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان... ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية:(**وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**).

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!

وهكذا يُثبِّت الله المؤمنين ويقوِّي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم، ويطمئنهم إلى أنَّ خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع، والذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه، فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق، وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيرًا ولا قليلاً لو قطع عنهم الأرزاق! وهو أكرم أن يكل عباده– ولو كانوا أعداءه– إلى ما يعجزون عنه البتة، فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء!)[1].

وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يحمل ذاك اليقين، وتجري عليه آيات البركات في مجاري الأرزاق لم يتوان صلى الله عليه وآله وسلم في إيجاد الاكتفاء الذاتي والاستغناء كليًا عن أسباب الأرزاق المعتادة بين الناس، ابتداءً بأمره بشراء بئر رومة من اليهود، إلى تشجيعهم على الصفق في

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٧٩.

الأسواق، إلى الخروج إلى قوافل قريش التجارية، إلى تأييد أبي بصير في قطع إمداد الأعداء وإضعافهم اقتصاديًا، وغير ذلك كثير.

ومع هذا فلا بد أن تمرَّ على المؤمنين المجاهدين ظروف عصيبة، وجوع شديد، وفقر مدقع، وهذا جزء من البلاء الذي يصيب المؤمنين، حتى وهم في مواجهة العدو.

فكم جمع الله على المؤمنين من ابتلاء في الخندق حيث البرد الشديد، والريح الصرصر، والفقر، والجوع، والخوف، ونقض اليهود العهود، حتى أسقط كلُّ بلاءٍ صنفًا من أصناف المنافقين، وما بقي إلا الصفوة، والمعركة لمَّا تبدأ بعد!

ويكفي أن يصف الله تعالى ظروفهم بقوله: ﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾** ﴾ (الأحزاب).

يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: (وعندما واجهت الصحابة صخرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر، ضربها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ضربات ففتتها، وقال إثر الضربة الأولى: (**الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**)، ثم ضربها الثانية فقال: (**الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض**)، ثم ضرب الثالثة وقال: (**الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة**)[1].

وهكذا بشرهم بما سيكون من فتوح لهذه البلدان، وهم محصورون في خندق يقرصهم البرد والجوع، فقال المؤمنون: ﴿ **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا** ﴾. وأما المنافقون فقد سخروا من هذه البشارة، وقالوا: ﴿ **مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا** ﴾. وموقف المنافقين كان يتسم بالجبن

(١) من رواية أحمد، والنسائي في "الكبرى"، وقال الحافظ ابن حجر: إنَّ إسنادها حسن إلى البراء بن عازب.

والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل[1]، ولكنَّ القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير، والآيات هي:

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾(الأحزاب).

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأحزاب).

والآيات تشير إلى حالة النفاق وما تولده من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان. ولا يقف الأمر عند

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٣٧٦/١١.

الاعتقاد، بل يتبعه العمل المخذِّل المرجف، فهم يستأذنون الرسول صلى الله عليه وسلم للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية، زاعمين أنَّ بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام)[(١)].

لقد أراد المنافقون إثارة المخاوف في نفوس الصحابة مع ما صحب تلك المخاوف من جوع وغدر، وحصار، وتخويف، وإرجاف، بينما كانت حافزًا لأن يستنفروا كل طاقاتهم حماية لدينهم كالأم إذا تعرض صغارها للخطر، وكانت سببًا لاعتقادهم باقتراب النصر.

ويقول الدكتور أكرم ضياء العمري: (فقد لاحظ الصحابي جابر بن عبدالله ما أصاب الرسول ﷺ من الجوع الشديد، فطلب من زوجته أن تصنع له طعامًا، فذبح معزى له، وطحنت زوجته صاعًا من شعير، وصنعت برمة، وذهب جابر فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطعام، وسارَّه بكمية الطعام، فصاح النبي بالمسلمين ودعاهم إلى طعام جابر، فحضر منهم ألف، وأسقط في يد جابر وأهله، لكنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بارك في البرمة، فأكل منها الجميع حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير، فأكل منه أهل جابر وأهدوا منه)[(٢)].

ويقول أيضًا: (وقد تم الحفر بسرعة رغم الجو البارد والمجاعة التي أصابت المدينة في ذلك الوقت[(٣)]، فكان طعام الجيش قليلاً من الشعير يخلط بدهن سنخ (متغير الرائحة لقدمٍ) ويطبخ فيأكلونه رغم طعمه الكريه ورائحته المنتنة لفرط الجوع[(٤)]، وأحيانًا لا يجدون سوى التمر[(٥)]، وقد يلبثون ثلاثة أيام لا يذوقون طعامًا، ولكنَّ حرارة الإيمان طغت على آثار البرد والجوع القارصيْن، فكان المسلمون يعملون بقوة، ويحملون التراب على أكتافهم، وفيهم من كان لا يخدم نفسه من التجار والزعماء، وقد استووا جميعًا في

(١) السيرة النبوية الصحيحة ٤٢٣/٢.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة ٤٢٢/٢، والحديث في صحيح البخاري ٤٦/٥.
(٣) صحيح البخاري ٤٥/٥.
(٤) فتح الباري ٣٩٢/٧. ٣٩٣.
(٥) البداية والنهاية ٣٩٥/٤.

الحفر وحمل الأتربة، وهم في غاية الحماس يرددون الأهازيج، والرسول صلى الله عليه وسلم يحفر معهم[١]، وينقل التراب حتى اغبر بطنه ووارى التراب جلده، وقد شدَّ على بطنه أحجارًا لفرط الجوع)[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: بعثنا رسول الله ﷺ، وأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيرًا لقريش وزودنا جرابًا[٣] من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط[٤] ثم نبله بالماء فنأكله[٥].

فتهديد المنافقين بقطع الإمداد أمر طبيعي، إنما الأهم هو أن لا تنال هذه الكلمة من معتقد المؤمنين أدنى نيل، فضلاً أن تجعلهم يتنازلون عن أيِّ شيء من دينهم، أو يتركوا جهادهم، بل والله ينبغي أن يستثيرهم ذلك أكثر لتحقيق موعود الله لهم بتدخله وإغنائهم غنى لا يحتاجون بعده إلى سؤال أو طلب أو منَّة أو تهديد بقطع، وهم يعلمون أنَّ موعود الله منوط باتباعهم أمره، ومن أمره قتال العدوِّ كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (التوبة).

قال الإمام الطبري: (وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، يقول للمؤمنين: وإن خفتم فاقة وفقرًا، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾...

وإنما قيل ذلك لهم؛ لأنَّ المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحرم انقطاع تجاراتهم، ودخول ضرر عليهم بانقطاع ذلك، وأمَّنهم الله من العَيْلَة، وعوَّضهم مما كانوا يكرهون انقطاعه عنهم ما هو خير

---

(١) البخاري ٥/٤٧.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ٢/٤٢١.

(٣) الجراب: وعاء من إهاب الشاء، لا يوعى فيه إلا يابس، لسان العرب ١/٢٥٣.

(٤) الخبط بالتحريك الورق الساقط، فعل بمعنى مفعول، وهو من علف الإبل، النهاية ٢/٧.

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٦٢)، ومسلم (٥٠٣٨)، وأحمد ٣/٣٠٣، وأبو داود (٣٨٤٠)، والنسائي ٧/٢٠٧.

لهم منه، وهو الجزية، فقال لهم: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ إِلَى: ﴿صَـٰغِرُونَ ﴾ (التوبة).

وقال قوم: بإدرار المطر عليهم...

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾، فإنَّ معناه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بما حدثتكم به أنفسكم- أيها المؤمنون- من خوف العيلة عليها، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، وغير ذلك من مصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ ﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه)[1].

وفي تفسير البيضاوي:(﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾، فقرًا بسبب منعهم من الحرم، وانقطاع ماكان من قدومهم من المكاسب والأرزاق، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾، من عطائه أو تفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعدَه بأن أرسل السماء عليهم مدرارًا، ووفَّق أهل تبالةَ وجرَشَ فأسلموا وامتارُوا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض، ﴿إِن شَآءَ ﴾، قيَّده بالمشيئة؛ ليقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضِّل في ذلك، وأنَّ الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ ﴾ فيما يعطي ويمنع).

وقال في الحاشية: (قيَّده بالمشيئة: مع أنَّ القيد بها ينافي ما هو المقصود من الآية، وهو إزالة خوفهم من العيلة لفوائد:

الفائدة الأولى: أن لا يعتمد على حصول هذا المطلوب الموعود، بل يكون الإنسان أبدًا متضرعًا إلى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات.

والثانية: أنَّ الإغناء الموعود ليس يجب عليه تعالى، بل هو متفضِّل به في ذلك، ولا يتفضَّل به إلا عن مشيئته وإرادته.

---

(١) جامع البيان ١٠/١٠٦ و١٠٩.

والثالثة: التنبيه على أنَّ الموعود ليس بموعود بالنسبة إلى جميع الأشخاص، بل بالنسبة إلى جميع الأمكنة والأزمان، وكأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام لاحظ هذه الحكم في دعائه بقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾)[1].

[1] حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ٤/٤٥٠.

الوصايا

الوصية الأولى: تحقيق الاكتفاء الذاتي

أيها المجاهدون: إذا كان المنافقون الأولون يطمعون في تحقيق هذا الأثر؛ لقطع الإمداد عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكم هو مطمعهم- يا ترى- على من هو دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وكلُّ الناس دونه- ودون أولئك الرجال في الإيمان، ودونهم في الألفة، ودونهم في الجهاد؟

فإيجاد الأوقاف الاستثمارية ونحوها **ضرورة** لا محيد عنها، فإنَّ مما ندم عليه بعض المجاهدين أنهم كانوا يحرقون كل ما يصلهم من تبرعات في نفقات الحرب دون النظر إلى ما بعد الحرب، أو النظر إلى ظروف أصعب من ظروفهم، فحين قُطع عنهم الإمداد انفض الأصحاب في طلب الأرزاق لعوائلهم، وما أصبح لدى قياداتهم ما يطعمون به جندهم...!

الوصية الثانية: حماية سرِّ الإمداد

عدم منح المنافقين أي إشارة على سرٍّ، وأن لا تهبوا المنافقين أيَّ سر عن نفقاتكم مصدرًا وموردًا، فمن لا يؤتمن على سرٍّ ليس له قيمة، كيف يؤتمن على سرٍّ ثمين يقبض في مقابله المئين؟!

أيها المجاهدون: اكتموا ما استطعتم مداخيلكم، ولا تعطوا أسراركم لأيِّ منافق مهما كان سركم محتقرًا، فقد رضي الشيطان عند اليأس بما تحاقرون من أعمالكم وأقوالكم وأسراركم!

وهذا ما ينبغي أن يتعاهد على حفظه كل فرد، ليس سر فصيله فحسب، ولكن سر الإمداد مع أيِّ فصيل جهادي آخر، فلتعتبر أنَّ هذا هو سر الإسلام، وليس سر جماعة خاصة، وإنه كذلك؛ لأنَّ الذي سوف ينتفع بهذا السر هو عدو الإسلام، وليس عدو جماعة معينة.

فلا مجال إذن للتساهل بهذا السر، **فالإخبار بطريق مباشر أو غير مباشر عن تمويل أيِّ جماعة جهادية يعتبر خيانة للإسلام وللجهاد**.

وهذه المنهجية في التعامل هي منهجية "الوحدة المبدئية" الصحيحة، أي الوحدة على مبادئ معينة... حيث تُحدَّد مبادئ معينة في بنود معينة، يلتزم بالمحافظة عليها جميع المجاهدين من جميع الفصائل،

ويتعامل الفرد- من أيِّ فصيل جهادي كان- مع تلك البنود المبدئية المشتركة معاملته مع مبادئ فصيله، وخيانتها خيانة سرِّ دينه وفصيله.

فهذه هي الوحدة الحقيقية، ولا يضر بعد ذلك تعدد الأسماء، وانفصال الفصائل عن بعضها تنظيميًا، وما فائدة الوحدة النظامية إذا كانت الوحدة المبدئية بين الأفراد فرطًا؟!

وعلى هذا يكون التعاهد.

الوصية الثالثة: الاقتصاد والجهاد معًا

ما تزال طرائق جمع المال طرائق محدودة ومعلومة وبدائية ومحصورة، ولذا توجَّب أن يتحوَّل هذا النوع إلى دراسات ترتكز على أمرين:

الأول: حرمان العدو من تمويله كما صنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين كان يُغِير على القوافل، ويترك أبا بصير رضي الله عنه يصنع بها ما يشاء، والملاحظ في الفترة الأخيرة عدم بلوغ العمليات إلى مواقع النفط وطرقه ومنابعه... وذلك من تشديد العدو الحراسة عليها، فمدخول العراق الهائل من النفط كفيل بتعويضه كل نفقات الحرب وزيادة في الفترة الحالية... ولكنَّ الإبداع في الوصول إلى مقاتل النفط والاقتصاد أمر من الأهمية بمكان، ولن نعدم غيورًا في كل موقع.

ثانيًا: إيجاد مصادر مستقلة تحقق الاكتفاء الذاتي كما مرَّ معنا في التعاهد الثاني، لكنَّ التعاهد هنا أنَّ هذا الأمر لا بد أن يخضع لدراسات، يشرف عليها أناس متخصصون في جانب الجهاد وآخرون في الاقتصاد، ولتكن صورًا جديدة واضحة ومقنعة ومنطقية ككفالات سنوية لمراتب عسكرية معينة، أو تبرعات بسيارات، أو كفالة عمليات، وما هذا إلا من باب استثارة الأذهان لأشياء أكثر وأكبر...

الوصية الرابعة: تواصي بالنصرة

لا شك أنَّ الدور الفعلي في إمداد الجهاد لمن يقوم على جمع المال مبتغيًا به وجه الله والنصرة لهو أوسع أهمية من دور آحاد المجاهدين في الميدان، هذه الحقيقة التي ينبغي أن تكون واضحة، ولا ينبغي أن يكون الفهم قاصرًا على أنَّ الجهاد عند إطلاق الزناد فحسب، فما هذه إلا المرحلة الأخيرة التي تسبقها مراحل ومراحل، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة**

نفر الجنة، صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبيل الله)[1].

كما ينبغي أن نفهم أنَّ موعود الله بإبدال المؤمنين من واسع فضله، إن حاصرهم المشركون، إنما هو اختيار قدري واصطفاء إلهي لمن وفقه للإنفاق بنفسه أو لجمعه ورعايته: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾**﴾ (التوبة).

فالشرف كل الشرف أن يمثل العبد صورة لإغناء الله المؤمنين المجاهدين من فضله، فيكون هو اختيار الله جل في علاه.

يتبع إن شاء الله تعالى...

---

(١) أخرجه أحمد ١٤٤/٤، والدارمي (٢٤٠٥)، والترمذي (١٦٣٧)، وابن ماجه (٢٨١١)، والحاكم (٢٤٦٧)، وقال شعيب: حديث حسن بطرقه وشواهده.